تجليات التناص في أشعار أبي نواس

ــ مقاربة نقدية نصانية ــ

أ. فاطمة نصير
جامعة 20 أوت 1955 ــ سكيكدة (الجزائر)

1 ــ بدءاً ...

تعود الإرهاصات الأولى لظهور " التناص " كإجراء نقدي تحليلي إلى منتصف ستينات القرن الماضي، وقد تجلّ ذلك في أبحاث النّاقدة الأكاديمية الفرنسية "جوليا كريستيفا" حيث ظهر هذا المصطلح في عدّة أبحاث لها كتبت بين سنتي : 1966 ــ 1967،ثمّ تولت الدراسات التي عنيت بهذا المصطلح الجديد فاهتمّ بالمصطلح العديد من النّقّاد في الغرب وفي بلاد العرب، ففي الغرب نجد فيليب سولرس ورولان بارت وغيرهما وعند العرب نجد الباحث محمد مفتاح والباحث نور الدين السّد ...الخ، وقد أقرّ النّقاد العرب بأنّ معنى مصطلح التناص كان له حضوره ضمن سياق الثقافة النّقدية العربية القديمة، ولكن التسمية/ المصطلح كان غائباً وحلّ محلّها مصطلحات أخرى محاذية له ومقاربة لمعناه نسبياً، إذن فالدّال كان والمدلول كان غائبا، كالتضمين والاقتباس والتلميح والانتحال المعارضة ...الخ.

2 ــ في ماهية التناص :

أ ــ <u>التناص لغة</u> :

أدرجت المعاجم اللغوية كلمة " التناص" ضمن مادّة " نصّ" : « نص، نصا على الشيء:رفعه وأظهره،و فلان نص :أي استقصى مسألته عن الشيء حتى استخرج ما عنده... »**1**« ناصّ غريمه :استقصى عليه وناقشه، وهي مأخوذة من المادّة "نصص"...»**2**

«... نصّ على الشيء : عيّنه وحدّده ــ يقال نصّ الحديث : رفعه وأسنده للمحدّث عنه ــ والمتاع : جعل بعضه فوق بعض ــ و تناصّ القوم أي ازدحموا »**3** و« التناص من نص، نص الشيء رفعه وأظهره »**4**

كلّ هذه المعاني اللّغوية التي وردت في المعاجم اللّغوية العربية كان من شأنها أن تساعد في بلورة المعنى والاصطلاحي وتبسيطه .

ب ــ <u>التناص اصطلاحاً</u>:

خاض النّقاد في ضبط مفهوم التناص ،فاختلفت وجهات نظرهم، وكان نتيجة ذلك الاختلاف ظهور صيغ متباينة للمفهوم ،فقد ظهر التناص في الدراسات الأدبية والنقدية الحديثة كمصطلح يختزل تلك العلاقات الداخلية التي تحدث بين النصوص الإبداعية كنتيجة من نتائج امتزاجها وتحاورها وتراكمها«... لتخلق من النّص الأوّل نصا ثانياً يتشظى في نصّ آخر، لتشكّل مجريات " التناص" من خلال تفكيك الصورة الكليّة إلى وحدات جزئية »**5** وقد عرّفته

جوليا كريستيفا بقولها : « هو التقاطع داخل نص لتعبير مأخوذ من نصوص أخرى وهو نقل لتعبيرات سابقة أو متزامنة ،والعمل التناصي هو اقتطاع وتحويل، إنّه يولّد هذه الظواهر التي تنتمي إلى بداهة الكلام انتماءها إلى الحوارية والصوت المتعدّد ... »**6** أمّا النّاقد فيليب سولرس أنّ التناص هو « كلّ نص يقع في مفترق طرق نصوص عدّة، فيكون في آن واحد إعادة قراءة لها واحتداداً وتكثيفا ونقلاً وتعميقاً »**7**،وقد عرّفه محمد مفتاح بقوله : « هو تعالق (الدخول في علاقة) نصوص مع نص حدث بكيفيات مختلفة »**8**

3 ــ مستويات التناص :

اختلف النقّاد والباحثون في تصنيف مستويات التفاعل، ويرجع اختلافهم إلى تباين المناهج وطبيعة النصوص الأدبية (سردية وشعرية) التي يطبّقون عليها، فنجد مثلا الباحث " سعيد يقطين " ينطلق من النصوص السردية ويقسّم مستويات التناص إلى نوعين : مستوى عام ومستوى خاص**9**، في المقابل نجد الدكتور " محمد بنيس " ينطلق من النصوص الشعرية فيضع للتناص ثلاثة مستويات وهي كالآتي**10** :

أ ــ <u>المستوى الاجتراري</u>: في هذا المستوى يعيد الشاعر إعادة كتابة النّص الغائب بشكل جامد لا حياة فيه، شاع هذا النّوع في عصور الانحطاط حيث تعامل الشعراء بطريقة نمطية مع النصوص الشعرية ولم يعتبروها إبداعاً، ونتيجة ذلك ظهر تمجيد بعض المظاهر الشكلية الخارجية كما أصبح النّص الغائب نموذجا جامداً تتلاشى فعاليته من خلال النّص الحاضر

ب ــ <u>المستوى الامتصاصي</u> : يعتبر هذا المستوى أكثر تقدّماً من المستوى الأوّل، لأنّه ينطلق من الاعتراف بأهمية النصوص الغائبة و، فيتعامل معه كحركة وتحوّل لا ينفيان الأصل، كما أنّ الامتصاص يقف موقف الحياد إزاء النّص الغائب فلا يمدحه ولا يذمّه، إنّما يأخذ على عاتقه مهمّة تطويع النّص وإعادة صياغته وفق المتطلّبات التي كتب فيها النّص الحاضر ولم يعشها النّص الغائب في المرحلة التي كتب فيها .

ج ــ <u>المستوى الحواري</u> : إنّه أرقى المستويات في التعامل مع النصوص، بحيث لا يقوم به إلاّ شاعر متمكّن راسخ القدم في النظم والكتابة الشعرية، إذ فيه لا مجال لتقديس النصوص الغائبة مع الحوار، فالشاعر لا يستلهم النص ولا يتأمّله إنّما يذهب إلى أبعد من ذلك بحيث يقوم بتحطيم نوعه وحجمه وشكله فتتغيّر كلّ معالم وملامح النّص الغائب، وهكذا يكون الحوار قراءة نقدية علمية لا علاقة لها بالنّقد كمفهوم عقلاني .

4 ــ أشكال التناص :

انطلاقاً من أنّ التناص هو عبارة عن تداخل وتفاعل نصوص بطرق متعدّدة وآليات مختلفة، وهذا التداخل أو التفاعل قد تتعدّد مصادره ومنابعه، فيكون تارة حضور نص لمبدع آخر، وقد يعيد الشاعر إدخال نصّ له سابق في إنتاج آخر له، وفي هذه الحالة يرى الدكتور نور الدين السد ضرورة تقسيم أشكال التفاعل النّصي كالآتي**11** :

أ ــ <u>التناص الذاتي</u> : يظهر هذا الشكل عندما تدخل نصوص الكاتب أو الشاعر الواحد في تفاعل مع بعضها و يتجلى ذلك من خلال نوع النّص ولغته وأسلوبه.

ب ــ <u>التناص الدّاخلي</u> : ويحدث حينما يدخل نصّ الكاتب في تفاعل مع نصوص وكتّاب من عصره سواء كانت هذه النّصوص الأدبية أو غير أدبية .

ج ــ <u>التناص الخارجي</u> : ويتجلّى هذا الشكل عندما تتفاعل نصوص الكاتب مع نصوص غيره من الكتّاب التي ظهرت في حقب زمنية سابقة .

يجدر الإشارة بأنّ بعض النقّاد يقسّون أشكال التفاعل النّصي/ التناصي إلى نوعين وعلى رأسهم محمد مفتاح وسعيد يقطين وغرهما وهذين النوعين هما **12:**

1 ــ <u>التناص الدّاخلي</u> : وفيه يعيد الكاتب إنتاج ما كتب هو بنفسه .

2 ــ <u>التناص الخارجي</u> : يعيد فيه الكاتب إنتاج ما أنتجه غيره .

5 ــ مظاهر التناص :

للتناص عدّة مظاهر يتجلّى فيها للمتلقي / القارئ نذكر منها**13** :

أ **ــ <u>النّص الغائب</u>** : ويقصد به النّص الحاضر الذي يشتغل عليه النّص الحاضر، ويتفاعل معه، وقد يكون النّص الغائب ،إمّا قرآنا كريما أو حديثا نبويا شريفا أو قطعة أدبية نثرية (خطاب ،مقال)،أو مثل أو حكمة وفي أحايين أخرى نصا شعرياً ...

ب ــ <u>السياق</u> : إدراك السياق شرط أساس للقراءة السليمة التي يتمظهر من خلالها " التناص" للقارئ، وذلك لأنّ للنّص سياقات متعدّدة يمكن أن تكون ذات رابط أسطوري أو حضاري أو تاريخي ...

ج ــ <u>المتلقي</u> : يغتبر القارئ قطباً هاماً، وعنصراً مهماً من العناصر الأساسية التي ينكشف بها التناص، وذالك بالاستناد إلى ذاكرته ففي بعض الأحيان يقتطع شاعر بيتاً أو شطرا منه أو حكمة أو مثلاً ويوظّفه داخل خطابه، ويكون هذا التضمين في شكل" تلميح" أو" إشارة " أو إحالة على نصوص أخرى سابقة .

والمقصود بالمتلقي هو ذلك القارئ الذي يمتلك ذائقة جمالية ومرجعية ثقافية واسعة تؤهّله للدخول في عالم التناص فتصبح قراءته للنصوص إعادة كتابة عن طريق الفهم والتأويلي لها فالمتلقي إذن عنصر حاسم في رفع النّقاب عن التناص في حالة غياب المرجعية النّصيّة .

د ــ <u>شهادة المبدع</u> : يمكن للتناص أن يتجلّى من خلال شهادة المبدع الذي يشير أو يصرّح بمرجعيته الفكرية الإنشائية، فيكشف بذلك عن الثقافات والنّصوص التي يقبس منها، وهذا لأنّ للمبدعين قناعات معيّنة ورؤى مختلفة للكون والحياة،ومع ذلك يبقى النّص المقروء يجمع بين عدّة نصوص لا نهائية يستمدّها من هذه الثقافة التي ينتمي إليها .

6 ــ مقاربة تطبيقية في أشعار أبي نوّاس :

الرقم	صفحة الديوان	النص الحاضر	النّص الغائب	مصدر النّص الغائب أو صاحبه	نوع التناص	شكل التناص	طبيعة التداخل
1	14	**كم قد تغنّت و لا لوم يلمّ بنا دع عنك لومي فإنّ اللّوم إغراء**	**دع عنك لومي فإنّ اللّوم إغراء وداوني بالتي كانت هي الدّاء**	ديوان أبي نواس الصفحة 07	شعري	ذاتي	تناص على اقتباس حرفي
2	49	**من ذا يساعدني في القصف والطّرب على اصطباح بماء المزن والعنب**	**" أفرأيتم الماء الذي تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون "**	سورة الواقعة الآية 68 ــ69	قرآني	خارجي	تداخل لغوي حدث فيه اسحضار للآيتين
3	100	**سبحان علاّم الغيوب عجباً لتصريف الخطوب**	**"قل إنّ ربّي يقذف بالحقّ علاّم الغيوب "**	سورة سبأ الآية 48	قرآني	خارجي	تداخل لغوي استحضار مدلول الآية وإعادة صياغته
4	103	**لفتية قد بكروا بأكلب قد أدّبوها أحسن التّأدّب**	**1 ــ" إذا الفتية إلى الكهف ..." 2ــ".وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد " 3ــ"..وليتلطّف ولا يشعرنّ بكم أحدا"**	سورة الكهف الآية 10 ــ 18 ــ 19	قرآني	خارجي	تداخل دلالي ومعنوي مع استحضار بعض ألفاظ الآيتين الأولى والثانية ومن الآية الثالثة استحضار إيحاء دلالي
5	111	**وفتية لمصابيح الدّجى غرر شمّ الأنوف، من الصيد المصاليت**	**نداماي بيض كالنّجوم و قينة تروح علينا بين برد ومجسد**	معلقة طرفة بن العبد	شعري	خارجي	تداخل معنوي وامتصاص لمعنى صدر البيت وذلك عن طريق توظيف الصورة التي جاءت في النّص الغائب
6	132	**تبارك ربّ دحا أرضه وأحكم تقدير أقواتها**	**1 ــ " تبارك الذي بيده الملك وهوعلى كلّ شيء قدير " 2 ــ " والأرض بعد ذلك دحاها "**	سورة الملك الآية 01 وسورة النازعات الآية 30	قرآني	خارجي	تداخل لغوي : استحضار اللّفظ الأوّل من الآية الاولى مع امتصاص لبعض معانيها وكذلك استحضار اللّفظ الأخير من الآية الثانية وإعادة تشكيله في سياق جديد
7	133	**قد أغتدي والطير في مثواتها لم تعرب الأفواه عن لغاتها**	**قد أغتدي والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل**	معلقة امرئ القيس	شعري	خارجي	امتصاص مضمون صدر البيت واستحضار جل دواله اللّغوية
8	**160**	**كأساً دهاقا،*صرفا، كأنّ بها إلى فم الشّاربين مصباحاً***	**" كأساً دهاقا"**	سورة النبأ الآية 34	قرآني	خارجي	تداخل لغوي وذلك عن طريق استحضار ألفاظ الآية
9	174	**فاعمل ليوم عبوس من شدّة الهول كالح**	**" إنّا نخاف من ربّنا يوماً عبوساً قمطريرا"**	سورة الإنسان الآية 10	قرآني	خارجي	تناص جزئي على شكل اقتباس حرفي/ اجتراري
10	202	**وأنت الفتى في مثل وصل حباله تنافست الحور الحسان الخرائد**	**1 ــ " فيهنّ خيرات حسان " 2 ــ "حور مقصورات في الخيام "**	سورة الرحمن الآية70 والآية 72	قرآني	خارجي	تداخل لغوي مشترك بين الآيتين : استحضار الوصف من الآية الأولى واللّفظ من الآية الثانية
11	221	**وكنّا إذا ما الحائن الحد غره سنى برق غاو، أو ضجيج رعاد**	**" ... ويصرفه عن ما يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار "**	سورة النور الآية 43	قرآني	خارجي	تناص اجتراري جاء شكل اقتباس حرفي من الآية
12	271	**سقى اللّه ضبيا مبدع الغنج في الخصر يميس كغصن البان من رقّة الخصر**	**وكشح لطيف كالجديل مخصّر وساق كأنبوب السقي المدلّل**	معلّقة امرئ القيس	شعري	خارجي	امتصاص جزئي لمضمون صدر البيت المجود في النّص الغائب
13	393	**أقول للقانص حين غلّسا والصّبح في النّقاب ما تنفّس**	**" والصبح إذا تنفّس "**	سورة التكوير الآية 18	قرآني	خارجي	تداخل لغوي ودلالي /تناص امتصاصي
14	594	**يا ابنة الشيخ اصبحينا ما الذي تنتظرينا**	**ألا هبي بصحنك فاصبحينا ولا تبقي خمور الأندرينا**	معلّقة عمرو بن كلثوم	شعري	خارجي	امتصاص مضمون صدر البيت واستحضار مدلولات لغوية منه
15	602	**فقال لي الخمّار عند وداعه وقد ألبسني خف حنين**	**يقال في المثل العربي المأثور: " عاد فلان بخفي حنين "**	مثل عربي يضرب فيمن ذهب قصد الإتيان القيام بأمر ما أو الإتيان بشأن معين وإذا به يعود صفر اليدين	مثلي	خارجي	تناص على شكل اقتباس حرفي / تناص اجتراري
16	635	**سبحان من سخّر هذا لنا يوماً وما كنّا له مقرنين**	**" سبحان الذي سخّر لنا هذا وما كنّا له مقرنين "**	سورة الزخرف الآية 13	قرآني	خارجي	تناص على شكل اقتباس حرفي / تناص اجتراري
17	660	**وقلت : ربي ذو رحمـــــــــــ ـــة وذو غفـــــــــــــران**	**" وربّك الغفور ذو الرحمة "**	سورة الكهف الآية 58	قرآني	خارجي	تناص لغوي يتمثّل في استحضار ألفاظ الآية/تناص اجتراري
18	666	**سبحان من خلق الخلق من ضعيف مهين**	**" ألم نخلقكم من مّاء مهين "**	سورة المرسلات الآية 20	قرآني	خارجي	تناص لغوي : استحضار بعض ألفاظ الآية/ تناص اجتراري
19	667	**ربيب بيت وأنيس، ولم يربي بريش الأم محضونا**	**ربابة ربّة البيت تصبّ الخلّ في الزيت**	بشار بن برد	شعري	داخلي	تداخل لغوي : استحضار ألفاظ من صدر البيت / تناص امتصاصي
20	683	**فلماً خطّه بشرا سوياً حذا حور الجنان على حذاه**	**"فاتّخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثّل لها بشراً سوياً "**	سورة مريم الآية 17	قرآني	خارجي	تناص جزئي في شكل اقتباس حرفي من آخر الآية/ تناص حواري
21	683	**لعن اللّه كلّ واش وفّقا عن قريب بكفه عينيه**	**لعن رسول الله صلى عليه الراشي والمرتشي في الحكم، وفي رواية أخرى لعن اللّه الراشي والمرتشي في الحكم .**	عن أبي هريرة رضي الله عنه، رواه الإمام أحمد موسوعة نظرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم	حديثي	خارجي	اقتباس جزئي مع استحضار لبعض الدوال اللغوية من الحديث النبوي/ تناص امتصاصي

7 ــ ختاماً ...

من خلال الدراسة التطبيقية في أشعار أبي نوّاس تبدو نصوصه ثرية، وذلك يعــود إلــى تعــدّد منابعهــا ومواردها، فكما نلاحظ من خلال الجدول ــ الذي يمثّل عينة لأشعاره التي جمعت في ديــوان ــ أنّ أبــي نــوّاس يوظّف مخزونه الثقافي عن الاسترجاع والاستذكار لحظة الإبداع، وقد تنّوعت النصوص الغائبة التي استلهم منهــا فتارة من القرآن الكريم وتارة من الحديث النبوي الشريف تارة من المثل والحكمة وتارة أخرى من شعره السابق أو أشعار غيره من الشّعراء، فإن كان استخدام النّصوص الغائبة في العملية الإبداعية عيباً في النّقد العربي يجرّ الشاعر إلى دائرة الاتهام بالسرقة الأدبية، ففي النّقد الحديث الأمر انعكس تماماً وصار كلّ نصّ ينهل مــن عــدّة نصــوص وثقافات ومرجعيات هو نصّ ثري ومتميّز يدلّ على أنّ لمبدعه ثقافات متنوّعة تساعده علــى إعــادة صــياغتها وكتابتها وإخراجها بحلّة جديدة تجعل القارئ يستجمع أفكاره ويشحذ ذاكرته أثناء عملية القراءة، وبهذا يكون القارئ ايجابياً لا سلبياً لأنّه في كلّ يستخرج مدلولات جديدة لم تتبادر إلى ذهنه أثناء القراءة السابقة .

الهوامش والإحالات

1 ــ أحمد رضا : معجم متن اللّغة، منشورات مكتبة الحياة، بيروت ،1960 ، ص472 .

2 ــ إبراهيم أنيس وآخرون :المعجم الوسيط، المعجم الوسيط، ج02 ،دار الفكر، بيروت ،د ط، د ت،ص926 .

3 ــ المرجع نفسه : الصفحة نفسها .

4 ــ إبراهيم أنيس وآخرون : المعجم الوسيط، ج02 ،دار الفكر، بيروت ،د ط، د ت، ص 926 .

5 ــ عبد القادر فيدوح: الرؤية والتأويل، ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر،ط01 ،1994 ،ص74

6 ــ جمال مباركي : التناص وجمالياته في الشعر الجزائري المعاصر،إصدارات رابطة الإبداع الثقافيــة، الجزائــر، 2003، ص50 .

-F.soller set autres.théorie d´ensenble ,editions seuils,1968,p75 .7

نقلا عن : نور الدين السّد : الأسلوبية وتحليل الخطاب ،ج02 ،دار هومة للطباعة والنشر ،ص96 ــ 97.

8 ــ محمد مفتاح : تحليل الخطاب الشعري (إستراتيجية التناص)،المركز الثقــافي العربي،الــدار البيضـــاء،المغرب، ط03، 1992،ص121 .

9 ــ سعيد يقطين : انفتاح النّص الروائي ،المركز الثقافي العربي، د ط ،د ت،ص126 .

10 ــ محمد بنيس : ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب ،المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ،ط02 ،1985 ،ص253 .

11 ــ نور الدين السّد : الأسلوبية وتحليل الخطاب ،ج02، ص11

12 ــ محمد مفتاح : تحليل الخطاب الشعري،ص124 ــ 125 .

13 ــ جمال مباركي : التناص وجمالياته في الشعر الجزائري المعاصر، ص 149 ــ 153 .

ملاحظة : بالنسبة لصفحات مدونة البحث موثّقة ضمن الجدول الذي خصص للدراسة النقدية التطبيقية .